د. موسى كراد - المركز الجامعي ميلة - الجزائر
adab.kerrad@yahoo.com

صورة الطفل في المخيال الروائي الجزائري أثناء الثورة التحريرية
رواية " الليالي الحبلى بالأقمار " لمعمر حجيج (01) أنموذجا

The image of the child in the Algerian novelist imagination during the liberation revolution. The novel "Nights with satellite" by Muammar Hagej as a model

تاريخ الاستقبال / Date de réception	تاريخ القبول/ Date d'acceptation
23.12.2018	29.01.2019

ملخص

تحاول هذه الورقة تسليط أضواء النقد والتحليل على صورة الطفل الجزائري في المخيال الروائي الجزائري أثناء فترة الثورة التحريرية المباركة، وذلك في رواية " الليالي الحبلى بالأقمار " للروائي الجزائري " معمر حجيج "، حيث جاء الطفل فيها ثوريا، حافظا لكتاب الله، مدافعا عن قيمه الوطنية من لغة وهوية وثقافة.

الكلمات المفتاحية

صورة، الطفل، المخيال الروائي الجزائري، معمر حجيج.

Abstract

This paper attempts to shed light on the image of the Algerian child in the Algerian novelist imagination during the period of the blessed liberation revolution, in the novel " Nights are filled with moons " by the Algerian novelist Muammar Hagej, where the child was a revolutionary, preserving the book of God, defending his national values Of language, identity and culture.

key words

Image, child, algerian novelist imagination, Muammar Hagej.

مقدمة

الحديث والتعبير عن الثورة يعني الوقوف على مرحلة زمنية شاقة من تاريخ الجزائر، مليئة بالحقائق والمواقف والآثار والمآسي والخراب والدمار للمجتمع والفكر والثقافة، وبطولة ونضال شعب مقاوم ثوري لا يرضى الذل والاستعباد، ضريبة كبيرة، كلّ ذلك بحاجة إلى توثيق موضوعي وحسّ إبداعي مواز يتحمّل مسؤوليته الجميع، إذ تشكّل العملية الإبداعية عموما والرواية كجنس أدبي خصوصا، متنفسا حقيقيا في نقل تفاصيل هذه التجربة، واقعا وتخييلا، نقلا عميقا وواسعا إلى المتلقي، وقد جاء التعبير عن هذه الثورة في شكل تيمات مختلفة متنوعة حسب كل كاتب وروائي وميله واشتغاله، وذلك في صور حقيقية ومن مخياله عبرت بصدق عن الثورة التحريرية المباركة، من هذه الصور نجد صورة الطفل الجزائري أثناء الثورة، والتي – حسب اعتقادي واطلاعي – لم يشتغل عليها كثيرا في المتن الروائي الجزائري – في دراسات نقدية -.

إذن اتخذت هذه الدراسة من صورة الطفل في الرواية الجزائرية هدفا تبغي الوصول إلى أهم تجلياتها وفنياتها، خاصة من ناحية التجلي الموضوعاتي.

وتعد رواية "الليالي الحبلى بالأقمار" لصاحبها الروائي الجزائري من الروايات التي اشتغلت على عدة تيمات مختلفة كان أبرزها تيمة " الطفل والطفولة"، وكان ذلك أثناء الثورة التحريرية المباركة. فكيف تجلت إذن صورة الطفل في الـرواية، وماهي أبرز ملامحها الموضوعاتية؟.

تنطوي هذه الرواية بتشعباتها على تحليلات لكثير من الأحداث التاريخية السياسية التي تعود بنا إلى جذور القضية الجزائرية، وتتناولها بما هو تعبير عن حاجة متزايدة لإحياء القديم ودمجه كجزء عضوي لا ينفصم عن تصوراتنا الآنية للثورة. والأحداث التي تتناولها الرواية تشكل خلفية شديدة الأهمية لما قد يبدو وكأنه تجربة ذاتية للشخصية الأساسية في هذا العمل السردي، بل إن هذه الأحداث تتداخل مع السيرة وتتصل بها على نحو بارز كما ستظهره هذه الدراسة على نحو تفصيلي.

في هذا العمل نواجه ذاكرة تخلقت في الصراع، أو شهدت عليه، فنكون أمام ذاكرة تاريخية جزائرية همها اقتفاء آثار الصراع المتغير في العقود المتغيرة، وهي الذاكرة التي يطلقها كاتب يعبر عن تجربة عايشتها عن قرب، وتم التعبير عنها في جزء كبير من الرواية من خلال تجارب الطفولة، استحضر الكاتب من خلالها أجواء تاريخية هامة.

1. الرواية والمجتمع والواقع

تعرف الرواية بأنها الكتابة بالجسد ورسم صورة الحياة بالحكي، إنها سرد يعلن وجه الوجود بها، حيث يشكل المبدع سرّ الوجود بلغة الذات، وحوار الآخر، أو قل هي سيرة الأنا وصراعه مع الأشياء والكائنات، وهي على العموم: شكل الحياة وتحوّلاتها، وتبعثرها وتشظيها وانعكاس ذلك كله على الجسد لحظة الكشف والحدس والتجربة، إذن الرواية هي سفر الجسد والوجود في الزمكان(02) حيث يقوم السرد في الفن الروائي على ثلاثية الجسد والتخييل و شكل الحياة.

وعلى هذا الأساس: "فإن القول بمحايثة الرواية للحياة أو للواقع (بمعناها العام) :يحيل إلى القول بأنّ الرواية وهي تنتج، لا تنتج إلا بتراكيب التفكير الجمالي بالحياتي، ولذلك فإنها تنقاد بالقوة إلى استعارة شكلها من تقطيع متميّز ومخصوص لأبعاد الواقع و مستوياته المختلفة"(03) والرواية من منظور عبد الله رضوان: هي "ألصق الفنون الأدبية بالمجتمع، بل إنها الفن الوحيد الذي يكاد يرى في المجتمع صورة ذاته متمثلة ومنعكسة داخل النص الرّوائي"(04).

إنّ المجتمع يتشكّل من عدّة صور أولها الصورة النفسية، والصورة الاجتماعية فالسياسية ثم الاقتصادية إلى الثقافية، ثم إنّه يمثل حمولة من الآمال والآلام ولقد "عكست الرواية العربية منذ نشأتها الصورة النفسية للإنسان العربي - عكست ما يضطرم في نفسه من آمال وأحلام، وما يضطرم فيها من خيبات أمل ونزوات يأس، كما حملت الرواية العربية هموم الإنسان العربي ومشكلاته السياسية والاقتصادية، وعبّرت أيضا عن عقده النفسية التي تكوّنت من خلال تعايشه مع تلك الهموم والمشكلات"(05).

لقد انفتح المجال للمبدعين كي يشاركوا هذا المجتمع المريض ويلاته بأقلامهم الدامية، حيث إن العالم العربي كلّه عاش أو يعيش توترا وحروبا غير معهودة، ومن هذه الظروف المزرية أصبح كل مبدع يغرف روايته تحت عناوين مقتضبة هي في ذاتها تمثل روايات أو تجمع في طياتها مضامين لكل الأجناس الأدبية، وعلى العموم، فلقد ترك الاستعمار الفرنسي بصمته على الضمير الوطني الجزائري، مما أرّق الفكر والإبداع، لذلك من الطبيعي أن يزداد طرح إشكالية "الأنا والآخر" في الرواية الجزائرية، حيث زاد حرص الذات على تأكيد هويتها والدفاع عنها.

لقد سايرت الرواية الجزائرية الواقع، ونقلت مختلف التغييرات التي طرأت على المجتمع بحكم الظروف والعوامل التي أسهمت في إحداث هذا التغيير، ومن الملاحظ أن الرواية الجزائرية قد صبغت بصبغة ثورية، خاصة الثورة ضد الاستعمار، ودخلت الرواية

في ما بعد مرحلة جديدة فيها ثورة و نضال وانهزام، إذ انطلق الكاتب من الواقع الذي عاشه وعايشه في زمن الأزمة فاصطلح عليه ب "أدب الأزمة"(06).

2. ملخص الرواية

"الليالي الحبلى بالأقمار" رواية جديدة للروائي الجزائري معمر حجيج يتناول فيها يوميات طفل جزائري اسمه الحسين يعيش في قرية صغيرة في ناحية من نواحي ولاية باتنة في بلده الجزائر، يمكن تقسيم روايته إلى جزأين رئيسين هما:

الجزء الأول: يتحدث عن الطفل الحسين ومعايشته للثورة الجزائرية هو أهله ومجتمعه ووطنه.

الجزء الثاني: يحكي عن الطفل الحسين لما كبر وحقق حلمه بإكمال دراسته في القاهرة.

يهمنا - في معرض دراستنا هذه - مرحلة الطفولة التي عاشها الحسين أثناء الثورة التحريرية المباركة، وأهم الأحداث والمشاهد والوقائع التي عاشها وخاضها مع قريته الصغيرة وبوجود مستعمر غاصب لأرضه مستولي على خيرات بلاده.

تعالج الرواية الجزائرية "الليالي الحبلى بالأقمار" للروائي معمر حجيج جانبا من حياة عائلة تعيش في قرية في بالشرق الجزائري، في زمن الثورة التحريرية، وتدور وقائعها حول الطفل "الحسين" الذي عايش وجود مستعمر غير مرغوب فيه، فعرف العديد من الحقائق، جعلته يفهم الأمور على حقيقتها.

يجد الطفل "الحسين" نفسه أمام موت ومقتل الغريب أديب الحب والحرية خطيب عمته حيزية، وأبيه الذي اعتقد أنه غير دينه وهويته وأصبح شيوعيا - كما يدعي جده - فماهو إلا أب فاشل ترك زوجته وأبنائه لمحن الحياة، فيتربى مع جده وجدته اللذان زرعا فيه أحسن القيم والمبادئ والأخلاق. فحمل الطفل الحس الثوري الوطني، بنزعته المقاومة الرافضة للوجود الاستعماري، بالإضافة للحس الديني الذي جعله يحفظ كلام الله عز وجل عن ظهر قلب، ومحافظته على الثوابت الوطنية من لغة وهوية وثقافة.

وتتقاطع أحداث القرية في شخصية "الحسين"، إذ تناول الروائي العديد من المواضيع أو القصص التي عرفتها المنطقة و"الحسين" كان حلقة الوصل بينهم.

يعتبر الطفل الحسين - في الرواية - رمزا لتضحيات أطفال الجزائر، فهو أصغر فدائي في الثورة، دخل عالم النضال وسنه لم يتجاوز التاسعة من عمره، عندما رافق وتعلم من جده الكثير من المواقف النضالية والثورية، إذ كان يلتزم الهدوء تماما كالمناضلين

الكبار ويصغي لأحاديثهم وينجذب لخطبهم، على الرغم من أنه لم يكن يفهم كثيرا مما يقولونه، وكان يحلم بأن تندحر فرنسا الاستعمارية وكفى.

ارتبط اسم الحسين بقريته وقضيته فرضع حليبها وتربى على قيمها وتراثها وعلى نضالها أيضا، وشاطر أبناءها الحياة والأحلام والثورة.

رواية " الليالي الحبلى بالأقمار" مساهمة في نشر الثقافة التاريخية وسط الشباب بأسلوب روائي شيق، حيث سيتعرّف القراء، منهم الصغار أيضا، على طفل مثلهم يلعب ويلهو ويتحدّث بلسانهم، لكنه ذاق أيضا مرارة وقساوة المستعمر الذي لم يرحم براءته وجرده من كل شيء.

3. تجليات صورة الطفل في رواية "الليالي الحبلى بالأقمار" لمعمر حجيج

كما ذكرنا آنفا اتخذ ظهور وحضور صورة الطفل في الرواية تجليات متنوعة، فجاء الطفل في صورة الثائر المعارض الرافض لأشكال الذل والاستعباد والاستدمار الفرنسي، كذلك حافظا للقرآن الكريم كاملا، بالإضافة إلى محافظته على هويته ولغته وثقافته في مواجهة قوى همجية خبيثة.

أ. الطفل الثائر

تمَثل الطفل في رواية معمر حجيج ثائرا رافضا للوجود الاستعماري في بلاده، منافحا عن وطنه، على الرغم من طفولته وبراءته، فقد كان عقله عقل رجل حكيم في ثوب طفل صغير، "هذا الطفل اجتمعت فيه كل الأوصاف التي ذكرها أستاذي آنذاك، وهو يبدو لي شيخا بعقله، وطفلا بروحه، بل سيكون من كبار شيوخ آخر الزمان! "(07).

كانت المعارضة والرفض تسري في دماء الطفل الجزائري، حيث يقول عن نفسه في الرواية "كنت معارضا مع جدي وأعمامي والدرويش للقايد، وأعوانه، وألقب بالثائر، فينظرون إليّ بأنني رجل في غير أوانه، فأمطر جدي بسيل من المدح والاعتزاز والنخوة، فيقهقه لإعجابه بنباهة حفيده، وأنا لم أبلغ بعد التاسعة من عمري، وهذا الانتفاخ لشخصيتي كان وراءه عمتي حيزية الصنديدة بوزن عشرة رجال، وكانت تدخر ثورة الحب الشامل، وتبثها في روحي باستمرار، وتذكرني لكي لا أنسى قتلة الغريب الشهيد أديب الحب والكلمة الحرة."(08).

وكانت أولى المحاولات الثائرة التي قام بها الطفل الحسين أن شجب رأس ابن القايد، وذلك حين تسرب حمى التوقع والفزع إلى كل القلوب الحائرة المتذمرة من واقعها الذليل ولا تفتأ تبحث عن الدليل، حيث يقول "كنت بنصل السكين الثائر غير العليل حين تشاجرت مع عصابة ابن القايد، وابن الكولوني اللذين كانا يسخران مني، ويضحكان، وأقدم ابن

القايد على خلع عمامتي، وهو يصيح بأعلى صوته: تعالوا تتفرجوا على شيخ الفئران والقمل ليدخل البهجة على ابن الكولوني. أخذت عصاي، وألقيت بها على ابن القايد، فشججت رأسه، فأخذ ينزف بقوة.."(09). كانت هذه الحادثة الأولى التي تعرفها القرية، ويجرأ فيها طفل ثائر في غير أوانه على تأديب ابن القايد، لقد كانت هذه شجاعة غير مسبوقة يقوم فرد من قريته، وذلك قبل انطلاقات العمليات الفدائية والتضحيات في الجبال المجاورة لقريته. إنه الحس الثوري الذي يسكن روع الطفل الحسين.

لقد عهد هذا الطفل الثائر على نفسه وأهله وخاصة حيزية عمته أن يقتص لمقتل زوجها شهيد الحب والحرية، ففي حوار مع عمته يسألها بكل براءة أطفال: "يا عمتي حيزية، أنا من سيقتص من قتلة الغريب الأديب الشهيد، وسألتها: كيف يكون القصاص؟ قالت لي ودموعها تنسكب على خديها بصمت: يا ابن أخي، بالحب نزرعه في كل مكان ونسقيه بالوفاء، ونقدم ثماره بسخاء، وآنذاك سيختنق القتلة، ويلقون حتفهم من تلقاء أنفسهم حتى لو كانت أجسامهم تعلو وتهبط كأشباح على مسرح الحياة."(10).

لكن هذه الإجابات لم تقنع الحسين، فكانت هذه الكلمات تخنقه، وتزيد من سخطه على القتلة، كان التردد سيد الموقف للموافقة على رأي عمتي.. الحب المسكين.. أو نصل السكين..

"أرى القصاص بالحب نوعا من تسويق دواء المحبطين لتكريس الضعف في النفوس. الحصان المجنح لم يأت.. قررت إخفاء قدر من النقود لشراء سكين (بوسعادي)11 للقصاص من قتلة الغريب حين يحين وقته، وخبأته في زريبة الحصان الأبيض، وكل يوم أتفقده، وأقبله قبله الأخ لأخيه وأمسحه، وأرجعه بلطف وحنان إلى مكانه، وأسأل نفسي: أليست أمي كانت تضعه تحت فراشي ليحميني من كل مس؟ أليست هذه هي رؤية الدرويش لشهب في منامه؟!"(12).

لقد كان الطفل أثناء الثورة المباركة شاهدا رأى كل شيء بأم عينه، وذاق مرارة وحلاوة وأوجاع الرفض والتمرد فالحسين شاهد حين اختلف أهل القرية في دعوة القايد وأعوانه للحفل لأنه كان يناصر خصومهم من الكولون، وبعض القرى المطيعة المتكرمة بظهرها ليركب عليها الحاكم الفرنسي بأريحية دون سرج ولجام. "فقد كان القايد ساديا يتلذذ بتعذيبهم حين يثقل كاهلهم بالضرائب يقدرها بميزان مزاج أسياده الفرنسيين، ويأخذ الرشوة عيانا، والهدايا مصادرة وطغيانا، ويحاسبهم حتى على الهواء الذي يتنفسونه من بساتينه الفيحاء، وظلال أشجارها الممتدة على طول الطريق التي لا مفر من الاستظلال بها في ذهابهم وإيابهم، ويهدي السياط للأحباب، ويتصدق بالشتم بلا حساب، ويستغل

الضعفاء، فيعملون في مزارعه بأجر زهيد، أو دون أجر كأنهم عبيد، وينتزع منهم الأراضي الخصبة، ويقدمها قربانا لأسياده الكولون المتواطئ معهم."(13). وحاول ممثل القرية الماهر في المراوغة كالثعلب دعوة القايد، وأعوانه، فثار جد الحسين وأعمامه والدرويش لشهب في وجهه، وصرخوا كلهم صرخة واحدة: " الموت أهون لنا من إعلان الولاء والطاعة العمياء، والركوع لقتلة الغريب وكل الغرباء، والسماح بالدوس على ما تبقى من روح العزة والكرامة والنخوة مما ورثناه من تاريخنا اللامع المشرق. لا مجال لتسويد هذا التاريخ وتلطيخه للهبوط به إلى مزابل القياد والكولون والحكام. حرية قريتنا. بطولة رجالنا. عظمة أجدادنا. ليست للبيع في سوق النخاسة، ولا للخضوع لسطوة الطواغيت والفراعنة، ولا مكان لطبول الذيول في أفراحنا سواء كانوا بلباس البرانس الحمراء أم السوداء أم بربطات العنق اللامعة، ولو ذبحنا عن آخرنا. حيث صرخ جدي في وجه ممثل القرية ليجعله يخفي رأسه كالقنفذ، ويصغر ليكون بحجمه الحقيقي أمام الأحرار:

"أنت تحلم بترقيتك لتصبح قايدا جديدا تنعق كالغراب، وتنافس بقية القياد في إعلان الولاء أكثر لأسيادك، ونحن نحلم بالوفاء للشهداء الذين جادوا بأرواحهم لفك أسر وطننا من هؤلاء الغرباء الدمويين الذين جيء بهم من خشاش الأجناس، ومن سقط المتاع ليجثموا على صدر هذا الوطن الطاهر وتدنيسه، والإفحاش في قتل الأحرار، ومن بقي على قيد الحياة يكبل بسلاسل العبودية. ألم تشحن روحك بالعزة والكرامة حين تسترجع في ذاكرتك أنين قريتنا وهي تستنجد، وتصرخ، ولا مجيب، ولا مغيث! ؟

يا أيها الناس، ألا تستفيدوا من الحكم التي تقول: "مواجهة الخطر مرة خير من الخوف الدائم"، و" قزم واقف خير عملاق راكع "، و"لا خير في طول الجسوم إذا لم يزين طولها عقول"!؟"(14).

ما أروع روحنة الأطفال للثورات بالحب الشامل! كانت هذه الكلمات المنزلقة كالحرير دفعت الطفل كي يقتنع ويقنع جده ليثبت في موقفه، وهو ما زال طفلا، فكأنه يرى الحياة وما فيها من مآسي ليست إلا لعبة من ألعاب الأطفال التي تكون رهن إرادتنا، ونهايتها على الدوام سعيدة.

ب. الطفل الحافظ لكتاب الله

يتمثل الروائي معمر حجيج الطفل في روايته حافظا لكتاب الله عز وجل، ويقدمه مثالا للحرص الشديد لحفظ القرآن منذ نعومة أظفاره، حتى إنها أمنية كل أطفال القرية والجزائر آنذاك وهي حفظ القرآن الكريم ففي يوم من الأيام يستحضر بعض المشاهد التي

جمعته بالغريب الشهيد، إذ يقدم له الغريب أنواع الحلوى كلها، وبعد ذلك يسأله عن أمنيته:

"- اختر منها ما شئت، وخذ منها لأصحابك الذين تحبهم ما شئت، ثم يسألني ما هي آمالك؟ وماذا تتمنى؟ أُجيبُه، وفؤادي يدق بكل الألحان، ويقبر الأشجان:

- آمالي أن أحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وأمنيتي أن يحفظ أطفال الدنيا كلهم القرآن مثلي..."(15).

إنها تربية الفرد الجزائري الذي يرضع حليب القرآن الكريم بعد حليب أمه مباشرة، ومعه الأخلاق والقيم والمبادئ الفاضلة من أهله وعشيرته.

بعدها الشهيد الأديب يأخذ قطة الطفل أميرة من بين يديه، ويلاعبها بلطف ووقار وحنان كأنها سلطانة في قصر السلطان. يزداد أكثر غبطة، ثم فيقول له كلمات محفزة مشجعة لتكون نبراسا ونورا يهتدي به في كل حياته القادمة:

"- يا بني، أنت من اليوم سأناديك أبو هريرة هذا الزمان، وإمام المهطعين إلى نصرة الحق بالبيان، وستكون أميرا من أمراء الحديث النبوي لتبطل به سحر أمراء الطغيان، وستصبح قمة من قمم مفسري القرآن، وقاهر أئمة السلطان والهتان، وقائدا من قواد الجهاد يوم الطعان"(16).

شكّل الطفل في أهم مجريات وأحداث الرواية محورها وبؤرتها الأساسية، في حقيقتها ومخيالها، في الأحلام واليقظة، وأصبح المهدي المنتظر الذي ترتقبه الأمة ترتجي إنقاذها وإصلاحها، يقول الراوي:

"- يا شيخ عبد الرحمن، هذا الولد سيكون كشجرة الزيتون والتين اللتين في باب دار ضيوفك؛ واحدة غرست في الجهة اليمنى، والأخرى في الجهة اليسرى، ولكنهما تلتقيان، وتتحدان، وتتشابكان في الأعلى، وتشكلان ظلا لكل داخل، وكذلك هذا الطفل، فسيوحد بين الأمة، وإذا فرقت بينهم الأرض، فبفضله ستجمع بينهم السماء، وسيكون حديقة غناء يفوح منها مسك الإيمان، فيملأ كل الأرواح الحائرة بآي القرآن الكريم."(17).

ومن تلك اللحظة أصبح جده لا يناديه إلا بالشيخ الحسين، وهو ما زال غضا طريا لم يحفظ بعد كل القرآن، وكان يحب أن يتلو عليه ما تيسر من القرآن الكريم، ويقبله قبلة خاصة، ويقول له: "- ترتيلك للقرآن بصوتك العذب كأنك شيخ من الشيوخ المقرئين الكبار يجعلني أعيش روحانية القرآن بكل جوارحي، فأخال من عظمته وقدسيته ورهبته ومتعته كأنه ينزل عليّ الآن.

- كنت أحس في كل ما يطلبه مني جدي بأنني أكبر في عينيه."(18).

كان ختم الطفل للقرآن الكريم شيئا إدًّا، وحدثا عظيما يدور على كل لسان في قريته، وكان جده ينتظره بشغف كبير حتى أنساه تمرد ابنه عن كل أمنياته، وكان يسكنه خوف شديد من أي شخص يراه ينظر إلى الطفل بإعجاب، فيقرأ في الحين سورة الصمد والمعوذتين.

كان عرسا حقيقيا أن ختم الحسين القرآن الكريم حيث "التأم جمع العائلة كلها عليّ، وهم في حيوية غير معهودة، وكانت الهدية الأولى لختمي للقرآن الكريم زغردة جدتي التي أخرجتها طازجة حلوة بيضاء لأول مرة من دهليز لا شعورها المغبر الداكن الذي إن فاح إلى الخارج لن يكون إلا نواحا وعويلا على كل المفقودين والغرباء، وكانت الزغردة الثانية من أمي خبأتها لي منذ سنوات، فخرجت معتقة تسكر الآذان، وكانت الزغردة الثالثة لعمتي حيزية، وكانت مزيجا من الورود المتفتحة والذابلة والأوراق الخضراء واليابسة، ولكن وجداني تشرّبها جميعها بألوانها وأذواقها، وجاءت المهنئات من العجائز والنساء، فامتلأت أجواء دارنا بالزغاريد، وكدت أطير من الفرح، ولم أصدق نفسي أن أكون بهذه القدر والمكانة والقامة تناطح النجوم في قرية تبتسم، وتفرح قليلا، وتحزن، وتبتئس كثيرا."(19).

أُستقبل الطفل بالتكبير والتهليل والتصفيق والهتاف والأناشيد الدينية، "وأجلسوني على أريكة من الصوف، ووضعت أمامي خالتي حيزية لوحتي المزوقة مكتوبا فيها آخر ثمن من سورة البقرة، ثم تصفف أمامي زملائي ليسلموا على كتف أميرهم وشيخهم، ويهنئونني بعبارات حريرية عسلية منعشة. تجمعوا حول الصينية والقصعة وعيونهم تبسم ووجوههم تلفحها بهجة، وأفواههم تلوك ما لذ وطاب، وهم يتبادلون الضحكات والنكات السابحة في بحر كله سعادة تبشرهم بآمال لغد أفضل"(20).

إنَّ جد الحسين يعتبر ختم الطفل للقرآن انجازا عظيما به سيفرح أهل القرية، وبه يخفف الله عن القرية وأهلها، يظهر ذلك حينما خاطبه الطفل عن حضور أبيه من عدمه فثار في وجهه مرة أخرى "ثورة لم أعرف شدتها بهذا القدر منذ طفولتي. أبوك لا يرى أي فائدة في ختمك للقرآن الكريم. ثم قال لي بعد أن رجع إليه هدوءه ورجاحة عقله، وثبات عزيمته التي لا تصمد أمامها حتى جبال الشلعلع:

- ألا تعلم أنك أنت وأصحابك من حفظة القرآن من ستبنون لنا سفن النجاة حين يعم الطوفان. نحن نتبرك بكم، ونترجى من الله جلت قدرته أن تكونوا وسيلة في تخفيف غضبه وسخطه عنا بما تحملونه في صدوركم من كلام الله"(21).

من هذا المقتبس ندرك أن حامل القرآن في هذه القرية (الوطن ، الجزائر) هو مفتاح الفرج والنصر والشهادة، وعلى النقيض من ذلك أب الطفل (الشيوعي في نظر الجد) هو الدمار والخراب والخضوع والذل والاستعباد.

ج. الطفل المحافظ على دينه هويته وثقافته

بالإضافة إلى ذلك الطفل الثوري والحافظ لكتاب الله عز وجل، كان الطفل الجزائري أثناء الثورة التحريرية المباركة حافظا ومحافظا على قيمه وهويته وثقافته، ورثها أبا عن جد بالفطرة والاكتساب، انطلاقا من تشبعه وتشربه من القرآن الكريم، فقد كان متشبثا بهويته ثقافته فلا يحيد عنها أبدا على الرغم من صغر سنه.

كان الحسين في حيرة دائمة وشك مريب في كل ما يحيط به، فكان كثير الأسئلة التي لا يحب أن يسمع أجوبتها إلا من جده، والتي كانت تنير دربه وتبصره تارة، وتزيده حيرة على حيرة وشك بشك آخر تارة أخرى، فكان دائما يسأله قائلا:

"- يا جدي، من نحن؟ من أين جئنا؟ ولماذا أقمنا في هذه القرية؟ لماذا لا نتكلم لغة واحدة؟ لماذا أصحاب السراويل الضيقة، والبرانس الحمراء يستأثرون بأحسن الأراضي، وبكل خيرات بلادنا؟"(22)

إنّ لهذه الأسئلة صدى ووقعا أليما يحز في الطفل الحسين، وهي أسئلة تعبر عن واقع سياسي تتخبط فيه قريته تحت نير استدمار غاصب غاشم، وواقع ثقافي وفكري ما هو إلا صورة من صور ذاك القمع السياسي والاجتماعي، وهي أسئلة بريئة من طفل بريء تنبئنا للحالة والأوضاع التي وصلت إليه قريته من عين ومنظار طفل صغير، لكن ما يراه جعله أكبر من عمره.

ويأتي الجواب من جده على عجل، حيث يعطيه شيئا من الهوية والتاريخ والأخلاق والتربية الحسنة، يقول له:

"- يا بني، كن مثلي لا تترك وردك من القرآن الكريم، ولا تنس تاريخك؛ إن من لا تاريخ له لا وجود، ولا وطن له، والفرق بيننا، وبين البهائم أننا نكتب، ونقرأ، ولا فائدة من لسان لا يتلو كلام الله، ولا يوشح ذاكرة الأحفاد بملاحم أجدادهم لتبدو لهم في أجمل صورة كأنها عروس البحر حين تغطس ذيلها، وتظهر رأسها لتكون في صورة أبهى من كل جميلات الدنيا.

- يا بني، إن من لا يعبئ عقله كمرابط في ثغور معارف الأولين والآخرين، فالأحسن له أن يخرس، أو يقطع لسانه إربا إربا، ويرمى به للكلاب الهائمة الجائعة، وأما الأقلام إذ لم

تحرص في انزلاقها على الورق بأن تنطق، وتبوح بالأسرار المكنونة في القرآن عن الإنسان والوجود، وعما يموج في أعماق ذاكرة مآثر الأجداد، والأوطان، فالأحسن لها أن تكون في أيدي القرود تفرك بها أسنانها من الفضلات."(23).

إنَّ هذه الكلمات من جده جعلت منه طفلا يحب وطنه وتاريخ وعاداته وتقاليده، واتضح ذلك في أقواله وأفعاله طيلة مسار الرواية،

فقد كان جده لا يسأم من تذكيره بين الفينة والأخرى بسيرة قبيلته، وتركيبة أنسابها، ويقول له:

"- هذه أمانة سلمت إليك، فأحفظها، ولا تفرط فيها." فيجيبه الطفل بكل فرح وشجاعة:

- يا جدي، سأكتبها بمداد ذهبي، وأخبئها في صندوق ذاكرتي، وحراسه جنود لا يغمضون جفونهم أبدا.

- يا بني، إن أجدادنا كانوا أسودا يصيفون في سهول جبال الأوراس وسفوحه، ويقضون بقية السنة في الصحراء يجوبون بجمالهم، وماشيتهم كأنهم في دولة وحدهم. يكرمون الضيف، ويحمون الهارب من الحيف، ويرحمون المسكين واليتيم، ويحضرون الأفراح، والأتراح، وكانت ديارهم منارات لعابري السبيل، وخيامهم كالنجوم يهتدي بها كل ضال لطريقه، أو فاقد لزاده، كما كانوا معبرا ومخزنا لكل خيرات بلادنا، وحلقة ذهبية وسطى لإغداق الكرم، وزرع الود بين شمال الوطن وجنوبه."(24).

لقد اتخذ الروائي الجزائري من شخصياته وسيلة لبث وزرع كل القيم والثوابت التاريخية والوطنية، كما هو الحال عند جد الحسين، حينما بث حفيده الحسين قيم وعقيدة وتاريخ قريته، فكان كالذي يزرع في أرض خصبة تؤتي أكلها كل حين..

من بعض المواقف التي تدل على الحس الديني الصحيح الذي تربى به الطفل الحسين رفضه الإذعان والانصياع لأوامر جدته بخصوص زيارة أولياء الله كما تسميهم جدته، إذ تقول له: " يا بني، أريدك أن تنسى اعوجاج تفكير جدك، وسوء نيته في الأولياء والمرابطين، وعقوقه المتمرد على التماس الخير والبركة من منبعها الأصلي الصافي. هو بتصرفه، وشكوكه سبب لنا كل هذه المعاناة، وحرمنا من الاستعانة بالتوسل بهؤلاء للنيل من كراماتهم وبركاتهم. حبذا لو كان جدك مثلي ومثلك ومثل أبيك لما غابت عنا السعادة! أبوك كان يخشى من دعوات أوليائه الصالحين، وكان يزورهم، ويقدم لهم كل سنة كساء أخضر حريري لقبورهم، واعتقد أن البحر حال بينه وبينهم، وحرمه من التوسل بهم لتنزاح عنه ما يعانيه في غربته من هموم"(25). فيجيبها بأن أباه لم تنفعه بركات هؤلاء، فتاهت به

الدنيا، وأخشى أن يلحق بنا ما لحق به. وبعد أن أوصته بعدم الإحجام على أولياء الصالحين والإقبال عليه بقلب مستسلم لتنال من كراماتهم، فتحفظ القرآن، وتقرأ العلم الشريف الصحيح المبارك، فتصبح من أكبر العلماء كما يتمنى جدك، وتتشرب نفحات من بركات هؤلاء الذين يكرههم جدك وعمك لتزرعها آمالا في قلوب كل البائسين، والمهمومين، وأصحاب الحاجات. لكن فطرته العقدية السليمة تأبى ذلك فهو لا يريد إلا "أن أكون نسخة من جدي وعمي لمبارك"(26). فلمبارك هو شيخ القرآن في قريته... يرفض رفضا قاطعا التبرك بما يسمى بأولياء الله وأصحاب الأضرحة..

يصف لنا الكاتب مشاهد زيارة الجدة لضريح ولي من أولياء الله الصالحين وممارستها لطقوس معينة بمعية الطفل الحسين، والذي أظهر امتعاضا شديدا مما تفعله جدته حتى إنه أحجم تردد حينما أمرته بتقبيل الضريح يقول: "دخلت جدتي إلى ضريح الولي الصالح فقبلته، والعرق يتصبب على وجنتيها، وجبهتها تزداد انفتاحا لأساريرها، وروحها تعطر الأجواء من سكون قلبها وطيبتها، وشفتاها ترتجف، وتهمس بأشياء لا أكاد ألتقط فحواها. طلبت مني أن أقبله. ترددت لكن جدتي قلقت من إحجامي. قطبت وجهها غضبا. أمسكت برأسي. دفعت به نحو الضريح. قالت لي بصوت خافت لكنه حازم: يا أيها الولد الشقي، قبله بسرعة، لتنال بركته. لقد أفسد عقلك جدك وعمك لمبارك. قبلته ببرودة ترضية لجدتي. فرضت علي أن أكرر تقبيله سبع مرات. كنت كلما قبلته أشعر بدوار يلف رأسي، وبمرارة في فمي أتجرعها كالعلقم. انفرجت أسارير الغضب على جبهة جدتي. قبلتني. قالت لي، وهي فرحة مستبشرة خيرا"(27).

في الرواية كذلك ذلك الطفل المتمسك بهويته الدينية الإسلامية، والتي أصبح لا يستمتع بطعمها ولذتها وحلاوتها بسبب مناداته من طرف أترابه وأصحابه بابن الشيوعي فقد كان أبوه كما يحكي عنه جده أنه "كان يعمل في مصنع الأسلحة التي تقتل بها الشعوب المستضعفة، وكنت أراسله ليتخلى عنها، ثم حقق آمالي في وجود عمل آخر في مصنع الأدوية، فاستبشرت خيرا، وزدت رضا عنه حين علمت بأنه قد انخرط في حزب الشعب، ثم في حزب انتصار الحريات الديمقراطية، ولكن ذاك الزمن ولى، ولعبت به الخمر وصحبة الشياطين من الإنس، فتزوج فرنسية، وهجر كل ما هو جزائري، وانخرط في الحزب الشيوعي الفرنسي إرضاء لزوجته المتشردة مثله كي يشيّع وطنا اسمه الجزائر إلى الأبد في مقبرة النسيان، ومن ثم يصبح تائها بلا هوية ولا دين ولا وطن"(28).

كان الحسين يتضايق من كلمة الشيوعي التي يحس بها سكينا يقطع كبده وجده، وكان يتمنى أن يكون كلام جده محض افتراءات النمامين، وكانت نفسه تتشنج، وجلده

يقشعر حين يتيقن أن كلام جده لا تشوبه شائبة، ثم يحاول أن يضع كلامه دبر أذنيه، ويستحضر ما كانت تحكيه له أمه عن أبيه " فقد كان يحملني بين ذراعيه، ويلاعبني، فابتسم، وأصدر أصوتا أحاكي بها بعض كلماته، فيضحك حتى تغمر الفرحة كامل جسمه، ولا يتركني أبكي أبدا في ليل أو نهار"(29).

كان لا ييأس من أمل اقتلاع الشجرة الشيوعية الشوكية الملعونة بصحوة أبيه، ولا يبرحه هاجس رجوعه أخضر إلى القرية في الصيف، ويحلم بأنه سيقيم له وليمة لم تر القرية مثلها بمناسبة ختمه للقرآن. "سيعود حتما من فرنسا ومعه كثير من الأموال والهدايا يجعله يخرج عن زهد القرية، وسينحر ثورا وعدة كباش، وسيجتمع أهل القرية كلهم، ومن القرى الأخرى نساء ورجالا وأطفالا، وسألبس لباسا جديدا لم يلبسه أحد، وسأتبختر كالديك الهندي أمام زملائي"(30).

ويحكي لنا الكاتب عن الحدث الأكبر في حياة الطفل يوم أخذه جده مع أطفال القرية ركوبا على الحمير للتلقيح كي يتمكن من الدخول إلى المدرسة الفرنسية التي فتحت أبوابها لأول مرة لأبناء قريتنا. حيث كان يترجى جده بكل ما أوتي من قوة ليقنعه بالعدول عن فكرة أخذه إلى الرومي لأدرس عنده، "فأنا أصبحت أمقت كل رائحة لقائد، أو لرومي منذ النكبة المذيبة للقلوب، والهادمة للأعمار التي وقعت لأعمامي، وما يكابدونه من محن ملاحقتهم واعتصامهم بالجبال، وهروبهم من مكان إلى آخر، وعيون الخونة لا ترحمهم، ومقتل الغريب المسكين الأديب الشهيد، والحادث الذي وقع لي، وهربت ظنا مني بأن الجندرمة يبحثون عني"(31)، إنها الحمية الثورية الوطنية المتشبثة بقيم الهوية والمبادئ التي شبّ عليها الطفل الحسين، لكن جده ما زال يهون عليّه الأمر، وينزع منه الخوف الذي سكنه، "فقبلت الفكرة على مضض، وزدت اقتناعا حين التقيت بأصدقائي الذين التحقوا بالمدرسة، وأشبعوني بالحكايات عنها، فأغرتني أكثر على ترويض نفسي، والاستسلام للأمر الواقع، بل أصبحت متلهفا لمعرفة هذا العالم الجديد الذي وصف لي بطريقة تشوقني، وزاد من اقتناعي ما قاله لي جدي من محفوظ مأثوراته:" من تعلم لسان قوم أمن شرهم."(32).

يصور لنا الكاتب نظرة المستعمر المسبقة للفرد الجزائري حيث يسميه تلقائيا باسم محمد للذكر وفاطمة للأنثى، يقول الكاتب على لسان هذا الفرنسي: "أنت اسمك محمد، وقال لبنت أخرى أنت اسمك فاطمة، فسألهما مرة أخرى عن اسميهما بالفرنسية، فرددا ترديدا ببغاويا اسمي محمد، وفاطمة، وكان معلم الفرنسية قد عرف اسميهما من أبويهما المغتربين اللذين كانا في صحبتهما، فتكلما مع المعلم، فعرفنا أنهما يحسنان التخاطب بالفرنسية، ولم نفقه شيئا غير ذكر اسم محمد، وفاطمة المتردد على لسان الرجلين، وبعد

خروج المغتربين سأل المعلم طفلا آخر عن اسمه، فقال له: محمد، ثم سأل آخر فقال له: محمد، وكل الأطفال كرروا الاسم نفسه، وحتى بنت القايد وكاتبه، والشامبيط، وهن يعتبرن أنفسهن أكثر تحضرا وتقدما منا نحن الأطفال أبناء الجبال والقرى، فهن حين سألهن المعلم عن أسمائهن واحدة تلو الأخرى كررن اسم فاطمة"(33).

غضب المعلم حتى الجنون، وتمتم بين شفتيه، "يا للعجب ! كل العرب محمد وفاطمة حتى في أحلامهم"(34). سأل أحد المهاجرين، ماذا تعني كلمة: (communiste)، فقال له تعني شيوعي مثل أبيك، "فدارت بي الأرض، ولساني يهمس لقلبي: أبي رومي.. أبي رومي.. جرتني رجلاي بسرعة لكي اختفي عن الأنظار، وأنسى ما سمعته. رآني المعلم مهموما، فأشار بيده لأقترب منه.. قال لي:

Hélas! quel bonheur mon petit Hocine, je suis très contant, ton père camarade Ablhamid est un communiste comme moi, et aussi son épouse ma tante Susan".(35)

تنهد الطفل تنهيدة متبرمة من كل الأشجان، وهمس لروحه: "المعلم واللغة الفرنسية هما الاحمرار، وشيخ القرآن والعربية هما الاخضرار"(36). وهنا يظهر التمسك بالقيم الوطنية والدينية للطفل على الرغم من صغر سنه...

يصف لنا الكاتب يوميات الطفل في هذه المدرسة الفرنسية حيث يذكر أنه دائما يذكر زملائه ألا يأكلوا كل ما يعطى لهم من هذا الرومي، فجدته أوصته دائما أن كثيرا من أكلاتهم حرام على المسلمين، فهم يأكلون لحم الجيفة والخنزير، ويشربون الخمر، أو يمزجونها مع كثير من حلوياتهم وأكلاتهم، وهنا تذكر أباه في فرنسا مع الفرنسية، هل أكله كله حرام؟ إن كان ذلك صحيحا، فما يعير به الناس حقيقي. فيتألم ويصيح " آه من هذا الواقع المرير الذي يقطع أنفاسي! متى سيتوب أبي؟ وأتذكر دائما ما كان يعيرني به الأطفال بأنني ابن الشيوعي الكافر المرتد عن دينه(37). إنه طفل يزن عشرات الرجال، طفل حُمّل مالا يستطيع حمله وتحمله.

وعلى الرغم من طفولته فقد كان يتشاجر مع كل من يسميه الرومي اللصيق بالشيوعي، فيغضب، ويشتم، " فكانوا يكلمون بعضهم بعضا سرا باسم الرومي، ويتندرون بي، ويتخذونه موضوعا للسخرية مني، فإذا حضرت يغيرون كلامهم،"38 ومن هذه اللحظة كره الطفل النطق بأية كلمة فرنسية حتى لا يغشاه الاحمرار مثل أبيه ومعلمه، و يضيع مشيخته، وتبقى حنجرته تسترسل في تلاوة القرآن.

رغم أنه توسل لجده أكثر من مرة كي يوافق على تركه المدرسة الفرنسية لأنه أصبح يمقتها، ويرمي كل مباهجها في الزبالة التي لا تشتم منها غير رائحة الاستعمار والكفر كما أكدت له جدته.

خاتمة

نلاحظ إذًا أنّ رواية "الليالي الحبلى بالأقمار" في جميع بنياتها الموضوعاتية والفنية المعبرة عن حضور الطفل من حيث (التجليات، العنوان، اللغة والأسلوب) كلّها تشكّل بنية كاملة مستوحاة من وقائع ثورة التّحرير الكبرى لذا جاءت أحداثها مقترنة بالواقع الجزائري المُعاش آنذاك، تترجم لنا واقعا مريرا يسيطر عليه الإستعمار مصوّرةً كلّ أنواع الظّلم والبؤس والشّقاء الّتي عاشها أبناء الجزائر في تلك الفترة.

لقد كانت رواية "الليالي الحبلى بالأقمار" لمعمر حجيج معبرةً عن الفعل الثوري التحرري، من خلال الطفل الحسين الذي طوعّه الكاتب تطويعا إيديولوجيا لا يخرج عن دائرة ما وقر في عقله وقلبه من التزام بالدين وحب الوطن، حيث يتضافر الإسلام والوطنية، وهما عاملان متأصلان في الإنسان الجزائري، في تأليف نظرة معمر حجيج للثورة التي يعكف على تشخيصها في باكورة أعماله الأدبية. ويجعل الكاتب انطباع الطفل عن الثورة نابعا من إحساسه بالاختلاف بين ثقافة الإنسان الجزائري وثقافة الإنسان الفرنسي، فالثورة في نظر الكاتب لم تكن تستند في بداياتها إلى إيديولوجية بعينها، وإنما كانت تركن إلى إيمان الإنسان الجزائري بوطنيته وعروبته وإسلامه واعتزازه بها جميعا.

الهوامش

01. معمر حجيج: الأستاذ الدكتور رئيس المجلس العلمي في جامعة باتنة، له العديد من المؤلفات والكتب النقدية الأكاديمية، والروايات منها: مهاجر ينتظر الأنصار مطبعة قانة 2015، معزوفات العبور مطبعة قانة باتنة 2015. بالإضافة للرواية المشتغل عليها في الدراسة: الليالي الحبلى بالأقمار. مهاجر ينتظر الأنصار، معزوفات العبور..

02. بشير ونيسي، شعرية الرواية، الحوار المتمدن، العدد: 2488- 7/12/2008، 09:41، http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=155497

03. عبد اللطيف محفوظ، (2008م)، آليات إنتاج النص الروائي ، نحو تصور سيميائي ط1، منشورات الاختلاف الجزائر، ص: 19.

04. عبد الله رضوان، (2003م)، البنى السردية (نقد الرواية)، ط1، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ص: 07.

05. المرجع نفسه، ص: 07.

06. ادريس بودیبة، (2000م)، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط1، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، ، ص 50-51.

07. معمر حجيج، الليالي الحبلى بالأقمار، رواية (مخطوط)، ص: 22.

08. المصدر نفسه، ص: 72.

09. المصدر نفسه، ص:77 – 78.

10. المصدر نفسه، ص: 34.

11. نوع من السكاكين ينسب إلى مدينة بوسعادة بالجزائر.

12. معمر حجيج، الليالي الحبلى بالأقمار، المصدر السابق، ص: 35.

13. المصدر نفسه، ص: 72.

14. المصدر نفسه، ص: 72-73.

15. المصدر نفسه، ص: 4 – 5.

16. المصدر نفسه، ص: .6

17. المصدر نفسه، ص: .15

18. المصدر نفسه، ص: 22.

19. المصدر نفسه، ص: 69.

20. المصدر نفسه، ص: 69.

21. المصدر نفسه، ص: 71.

22. المصدر نفسه، ص: 54.

23. المصدر نفسه، ص: 54.

24. المصدر نفسه، ص: 55.

25. المصدر نفسه، ص: 47.

26. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

27. المصدر نفسه، ص: 49.

28. المصدر نفسه، ص: 70.

29. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

30. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

31. المصدر نفسه، ص: 81.

32. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

33. المصدر نفسه، ص: 84.

34. المصدر نفسه، الصفحة نفسها

35. المصدر نفسه، ص: 84 – 85.

36. المصدر نفسه، ص: 85.

37. المصدر نفسه، ص: 86.

38. المصدر نفسه، ص: 89.

قائمة المصادر والمراجع

1_ إدريس بودیبة، (2000م)، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط1، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة الجزائر.

2_ بشير ونيسي، شعرية الرواية، الحوار المتمدن، العدد:

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=155497،7/12/2008-2488

3_ عبد اللطيف محفوظ، (2008م)، آليات إنتاج النص الروائي، نحو تصور سيميائي، ط1، منشورات الاختلاف الجزائر.

4_ عبد الله رضوان، (2003م)، البنى السردية (نقد الرواية)، ط1، دار البازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان الأردن.

5_ معمر حجيج، الليالي الحبلى بالأقمار، رواية مخطوطة.